الفلسطينية والحالات العالمية الاخرى. إذ يواجه الفلسطينيون مجتمعاً متكاملاً قائماً بذاته، بمعيار ان الاسرائيليين ليسوا «فرعاً» لوطن اسرائيلي قائم في مكان آخر، على نحو ما كان الفرنسيون في الجزائر او روديسيا/زيمبابوي، ويتعرض الفلسطينيون الى الاقتلاع والاجلاء وليس مجرد الاستبداد والاستغلال، في محاولة لانكار وجودهم الوطني ومحو ذكراهم من التاريخ. ويفسر ذلك ضرب المواطنين الاسرائيليين بلا تمييز بين عسكري ومدني او موظف وغير موظف او ضابط وجندي وما إلى ذلك. كما يفسر ذلك أيضاً عدم التعرض إلى المواطنين الفلسطينيين، من موظفي الادارات المدنية كالشرطة والقضاة وغيرهم (التابعين قانونياً للاردن وليس اسرائيل) وحتى من متعاملين مع سلطات الاحتلال، سوى في أندر الحالات، بسبب الضرورة المطلقة للحفاظ على وحدة الصف الفلسطيني ولعدم التعرض لأية أطر ومؤسسات تضفي نوعاً من الكيانية على الفلسطينيين وتنقذهم من الشتات المعنوي التام.

تفسر خصوصية الوضع التاريخي الفلسطيني لجوء الفلسطينيين إلى أشكال إرهابية معينة وامتناعهم عن أشكال اخرى، لكنها لا تدل، بالضرورة، على صحة او فعالية الاشكال المتبعة. فهل تتناسب تلك الاشكال مع المصالح الفلسطينية بعيدة المدى؟ وهل تخدم حتى الاهداف المرحلية الاكثر تواضعاً؟

يلاحظ في التجارب الثلاث المشار اليها أعلاه، ان الكلفة المالية والبشرية التي تحملتها كل من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا في فيتنام والجزائر وقبرص، كانت باهظة بحيث فرضت إعادة النظر في المشروع الاستعماري على كل من القوى العظمى (بلغت الكلفة الاجمالية الاميركية ١٠ مليارات دولار سنوياً و٥٠ الف قتيل[٦]؛ والفرنسية ٥٥ مليار فرنك و١٧ الف قتيل[٧] ـ علماً ان ذلك شمل القتال النظامي وليس الارهاب فقط ـ ؛ والبريطانية ٩٠ مليون جنيه استرليني، وهي الكلفة الدنيا[٨]. ولم تبلغ كلفة محاربة العمليات الفلسطينية ذلك المستوى لدى اسرائيل، علماً بأنه يجب التنبيه إلى أفضليتين تتمتع بهما اسرائيل، وهما: عدم خضوع اسرائيل الى المنطق الاقتصادي العادي، اذ تحصل على دعم مالي مباشر وغير مباشر، اميركي وغربي يتيح لها تحمل العبء الدفاعي المتزايد دون ان يتأثر موقفها السياسي؛ والثاني، قدرة اسرائيل على اتخاذ الاحتياطات المضادة للفلسطينيين دون تجيير طاقات مالية وبشرية إضافية كبيرة، بفضل «عَسْكَرَة» المجتمع الاسرائيلي أصلاً؛ فلا يؤدي العمل العسكري الفلسطيني إلى إرهاق اسرائيل اقتصادياً اكثر مما تُرْهِق أصلاً منذ ٢٧ سنة في مواجهة الجيوش العربية، إلا اذا نما وغطى جميع انحاء الارض المحتلة.

ويلاحظ في التجارب التحررية الاخرى أيضاً أن المقاومين الوطنيين نفذوا معدلاً مرتفعاً جداً من النشاط العسكري العادي، والارهابي، حتى اضطرت القوى المحتلة الى الرضوخ الى مطالبهم. فقد نفذ المجاهدون السريون في العاصمة الجزائرية ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ عملية ارهابية شهرياً في اواسط العام ١٩٥٨[٩]. وقد بلغت قدرات تنظيم الجبهة الوطنية في الخارج حد تنظيم ٤٢٣ عملية في فرنسا خلال شهر واحد (٢٤/٨ ـ ٢٨/٩/١٩٥٨)[١٠]؛ بينما تمكن القبارصة من تنفيذ ٤١٦ عملية في شهر واحد في أوج نشاطهم (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٧)[١١]، وقد افتخر قائدهم غريفاس بأنه لم ينفق سوى ٥٠٠٠٠ جنيه خلال أربع سنوات لتحضير وتنفيذ النشاط العسكري برمته[١٢].

لا يعني ما سبق أن الفلسطينيين لم ولن ينجحوا في عملهم العسكري لأنهم لم يكبدوا